الفصل الثانى

هل أنت تتحدث إلىَّ؟!

بلغت الثامنة والعشرين من العمر وكان ذلك عام ١٩٨٢م، والتحقت بإحدى كليات جامعة سان فرانسيسكو، وهى أقدم جامعات الچيزويت فى أمريكا. وعقب وصولى إلى هناك بقليل، أنشأت صداقة وطيدة مع عائلة مسلمة من المملكة العربية السعودية. كانوا ثلاثة إخوة طلبة فى جامعة سان فرانسيسكو وهم: محمود وعمر وراجية قنديل- ولدان وبنت- وجميعهم فى بدايات العشرينيات من عمرهم.

وعلى الرغم من عدم معرفتى بأى شىء عن الإسلام، فقد افترضت- ولا أعلم لماذا على وجه التأكيد- بأن الإسلام من بين جميع الأديان فى العالم هو أكثرها لا عقلانية، لكن تبادل الحديث مع أصدقائى الجدد قد دفعنى إلى إعادة النظر فى ذلك، حيث كانت أفكارهم المتعلقة بالدين تتبع منهجية وعقلانية محددتين، وحتى رغم ذلك فلم يكن فى مقدورى الارتكان إلى معظم ما يقولونه، فقد بدا إيمانهم بالنسبة إلىّ لا يتجاوز فى عدم عقلانيته ما لدى أديان الآخرين.

وقد سألونى خلال أحد نقاشاتنا عن معتقداتى الدينية. وعندما أخبرتهم بعدم إيمانى بالله وأشرت إلى السبب فى إيجاز، فلم يظهروا أى رد فعل على وجه التقريب، باستثناء «محمود» الذى ذكر ما يقال بأن الدين أحيانًا يتناقض مع العقل، ويتوجب قبوله تأسيسًا على الإيمان. وبالطبع لم يكن «محمود» هو أول من يخبرنى بذلك، فقد ظللت أسمع ذلك طيلة حياتى.

اعتدت أن أترك باب مكتبى فى جامعة سان فرانسيسكو مفتوحًا، حيث إننى -وعلى الدوام - لا أتذكر أين وضعت مفاتيحى. وقد اعتادت أمى أن تقول بأننى فاقد للذاكرة إلى درجة أننى قد أنسى مكان رأسى لو لم تكن مربوطة برقبتى. وعندما أدخل إلى مكتبى ففى العادة سوف أجد أشياء قد وضعها الطلبة على مكتبى مثل المذكرات وتكليفات الواجبات المنزلية. وبعد يوم أو يومين من إخبارى «آل

قنديل» ما يتعلق بإلحادى، فقد وجدت كتابًا سميكًا ذا غلاف أخضر موضوعًا فوق مكتبى، وكان مكتوبًا على غلافه هذه العبارة «القرآن الكريم».

فى البداية أصابنى قليل من الفزع والقلق والتشوش. عرفت أن أحد «آل قنديل» قد وضعه هنا، لكننى تساءلت عمَّ يريدون قوله ولماذا؟. وفكرت أنهم ربما قد يكونون بصدد محاولة تحويلى إلى دينهم، وأنهم يقولون إنه إذا كان لصداقتنا أن تستمر فعلىّ أن أصبح مسلمًا.

وهكذا كلما ازددت تفكيرًا فى ذلك الأمر، كلما ازددت إدراكًا بأننى قد بالغت فى رد فعلى. فأولاً- وقبل كل شىء-: فلم يكن آل قنديل متدينين للغاية، وذلك باعترافهم، ويؤيد ذلك أسلوب حياتهم الذى بدا متناقضًا مع عدد من التعاليم الخاصة بالإسلام التى تحدثوا هم عنها. ثانيًا: فلديهم العديد من الأصدقاء غير المسلمين، ولم يظهروا على الإطلاق الحد الأدنى من الاهتمام بالحديث إليهم حول دينهم. ثالثًا: فحيثما تناقشنا حول دينهم كنت أنا الذى يفتح هذا الموضوع. توصلت إلى الخلاصة التى تفيد بأنهم ربما قد ظنوا بأنه إذا كان لدى أسئلة أخرى تتعلق بدينهم فربما أضع قراءته فى الاعتبار، وكان ذلك قابلاً للفهم؛ حيث إنهم قد لقوا بعض المعاناة فى التعامل مع أسئلتى.

هل أنت تتحدث إلىّ؟

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] شعرت برعشة تسرى فى أوصالى بينما أنا أقرأ الآية السابقة. تحدثت إلى نفسى مفكرًا: هل أنت تتحدث إلىّ؟

لم أكن قد تجاوزت الصفحة الثانية من القرآن عندما عشت خبرة الإحساس الذى ما زال يتكرر طالما أطوف داخل النص المقدس. كانت السورة الأولى فى الصفحة الأولى للنص القرآنى، وهى فى جوهرها دعاء طلبًا للهداية. إنها تقول:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

هنا، فى الصفحة الثانية وفى بداية السورة الثانية، يجيب الله بذاته على القارئ، مقررًا أن الهداية التى قد دعا بها للتو فإنها بغير شك حاضرة فى يده. وهنا فكرت: إذن فإنك (تباركت وتعاليت) تقول إن داخل هذا الكتاب أجد الهداية التى قد دعوت أنا طالبًا لها فى التو؟ أعدت إلقاء النظر مرة أخرى على الآية الثانية ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يا لها من وسيلة، غاية فى الأصالة والإبداع والصواب، لتقديم الوحى! قلت ذلك لنفسى، بدلاً من الإحالة إلى تاريخ لأشخاص، أو لسيرة ذاتية لمعلم عظيم، أو لمجموعة منتقاة من أقوال الرسل، فإن مؤلف الكتاب الذى افترضت أنه محمد ﷺ يكتب النص على هيئة خطاب مباشر من الله إلى البشرية. كنت أفكر أن ذلك هو بالضبط ما ينبغى توقعه من وحى إلهى- على غرار الوصايا العشر، وقد بسطت لتصنع كتابًا.

وقد ازداد احترامى للمهارة التى يتسم بها القرآن كلما توغلت داخله. كنت منبهرًا على وجه الخصوص بالأسلوب الذى تتكرر به الخبرة ذاتها التى ذكرتها سابقًا- ولكن على مستوى جذرى متنام- حيث يتملكنى الشعور الخفى الذى كان القرآن يبعثه فىّ بالفعل على المستوى الفكرى وأيضًا على المستوى الروحى (حيث لا أملك كلمة أفضل). توصلت إلى فهم بأن صاحب النص المقدس- بأسلوب أو بآخر- قد ضمّن النص المقدس عددًا كبيرًا من الفقرات التى يعلم أنها سوف تثير وتستفز أسئلة وردود أفعال معينة داخل نفس القارئ، ثم أجاب على ردود أفعال القارئ المتوقعة هذه فى الفقرات التالية. هذه القدرة للقرآن على الأخذ بتلابيب القارئ إلى نقاش عقلى وروحى- أو مثلما يقول «فريدريك دينى» واصفًا إياها «القرآن يقرأ القارئ»[1]- تعطيه نفوذًا نفسيًا هائلاً، وذلك فى يقينى هو السر وراء التوهج والحماسة الدينية المشهورة عن المسلمين. لقد شعرت بأن صاحب النص قد امتلك بصيرة عميقة بخبايا الطبيعة البشرية، حيث- وعلى وجه الخصوص- ما زالت هذه القوة الفطرية للقرآن، محكومًا عليها من خلال تجربتى الخاصة بها، فى غاية العنفوان بعد ظهورها الأول منذ أربعة عشر قرنًا.

(١) فريدريك دينى، إسلام (نيويورك: هاربر ورو، ١٩٨٧م)، ص٨٨.

إن الآيات التسع والعشرين الأولى من السورة الثانية للقرآن تلخص بإيجاز وبلاغة موضوعات القرآن الرئيسية: حاجة البشرية إلى الخضوع الذاتى لله، ونبوة محمد ﷺ، واليوم الآخر والحساب، والاستخدام القرآنى للرمزية وضرب الأمثال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦]، والبعث والنشور للإنسان، وقدرة الله وسلطانه المطلق، تضم هذه الآيات أيضًا وصفًا للقارئ المحتمل لهذا النص المقدس. هؤلاء القرّاء الذين سوف يحصلون على الفائدة القصوى من القرآن هم المتقون (المؤمنون المخلصون). ضيقو الأفق من القراء هم من سيحصلون على الفائدة الأدنى، وهم الذين يميلون إلى رفض القرآن. يقع بين هذين الصنفين المنافقون (المدّعون) والضالون الذين يدعون الإخلاص الإيمانى، لكن يضعون فى الحقيقة رغباتهم الدنيوية وهواهم الذاتى فوق إيمانهم، وسوف يحصل هؤلاء على البعض القليل من الفائدة من قراءة القرآن ما لم يغيروا من توجهاتهم العقلية. لا يختلف هيكل هذه المقدمة عن ما تجده فى العديد من النصوص التعليمية الحديثة، والتى تصف محتوياتها وتحدد المتطلبات الأولية اللازمة للحصول على المعرفة منها.

لا بد من أنك تتحدث إلىّ؟

تقدم الآيات من الثلاثين إلى التاسعة والثلاثين من السورة الثانية القصة ذات المغزى لأول رجل وأول امرأة من البشر. مررت عليها بالقراءة سريعًا، ووصل إلى إدراكى وجود شىء يجانبه الصواب. وعلى الرغم من أن الرواية فى القرآن تتشارك فى العديد من التفاصيل مع رواية الكتاب المقدس، لكن كان هناك شىء خاص للغاية يتعلق بالرواية القرآنية. أعدت قراءة الآيات مرات أخرى عديدة، لكننى لم أستطع أن أضع يدى بالضبط على النقطة التى يريد القرآن توصيلها. وقد بدا الأمر إلىّ بأن القرآن إما أنه يقول شيئًا جوهريًا للغاية، أو أنه مجرد تشوش. عندها قررت أن أجول خلال هذه الآيات ببطء وبعناية سطرًا بعد سطر؛ لكى أرى ما إذا كان فى الإمكان تجميع الأمر وربطه؛ لتوصيل رؤية متماسكة.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

لقد أخذتنى الآية الثلاثون من السورة الثانية على حين غرة، ليس بسبب أنها تفتتح القصة الرمزية لأول رجل وامرأة من البشر، ولكن بسبب الأسلوب الذى تفعل به ذلك. بينما أقرأها هذه المرة أحسست فجأة بالوحدة الشديدة - بالعزلة - كما لو أن صاحب النص قد نحانى جانبًا داخل حيز من الفراغ والصمت؛ لكى يتكلم مباشرة معى ومعى فقط...

فى البداية تساءلت عما إذا كان صاحب النص قد أخطأ فى سماع أو فهم الرواية التقليدية عن آدم وحواء؛ لأن الآية التى أمام ناظرى قد أنكرت مجمل الهدف والغرض من ورائها. ولكن بينما أنا أعيد قراءة الآية مرة ثانية ثم ثالثة إضافة إلى المرة الرابعة، بدأت أشعر بأن صاحب النص قد أجرى تعديلاً وتبديلاً متعمدًا فى تفاصيل تلك الرواية القديمة.

مكان الآية هو فى الجنة، حيث يعلن الله للملائكة بأنه سوف يضع الإنسان فى الأرض؛ ليكون ممثلاً له: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. أثار الأمر اعتراضى، فصاحب النص قد أخطأ على طول الخط. لم يهبط البشر إلى الأرض من أجل إنجاز وظيفة إيجابية واحدة؛ هبوط جنس البشر على الأرض جاء بوصفه عقوبة على خطيئة. لذلك، فلا وجود فى إعلان الله هنا عن أى فعل خاطئ من جانب آدم أو حواء، ومثلما بينت الآيات التالية، فلم تكن أى خطيئة قد ارتكبت بعده.

كان الملائكة هم من أثاروا الاعتراض الطبيعى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟ كان الملائكة هنا هم - كما يبدو - من يريدون إدارة عجلة الرواية إلى الوراء إلى معناها التقليدى - وهو المعنى الذى نشأت أنا عليه. كان جوهر سؤالهم: لماذا تخلق هذا الكائن الموغل فى الخطيئة والعنف؟ لماذا تضع فى الأرض كائنًا سوف ينشر الدمار فيها؟ لماذا من الأساس تخلق هذا الكائن المعيب، فى حين أنك قادر على خلق أمثالنا نحن الملائكة؟ حيث

صرحوا بكل وضوح ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟ . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن سؤال الملائكة كان فى الجنة، فإن ذلك يعطيه قوة أعظم، حيث إن ما أكثر من خلق هذا المخلوق الناقص، أن الله على وشك أن يضعه فى بيئة سوف تستفز أسوأ نوازعه الإجرامية، وسوف يتحرك تحت توهمه بأنه بعيد عن رقابة الله، بمعنى آخر السؤال هو: لماذا يتعين أن يخلق الله هذه السلالات الفاسدة ويضعها على الأرض، فى حين أن فى مقدوره ببساطة أن يجعلهم ملائكة ويضعهم فى الجنة؟

كان هذا هو سؤالى! هو اعتراضى! كانت حياتى معبأة داخل هذه السطور الثلاثة أو الأربعة! أحسست كما لو أن القرآن كان يلعب بعواطفى، يتناول هذه القصة من أجل استثارتى. بعد ذلك - ولجعل الأمور أكثر سوءًا - أجاب الله على الملائكة ببساطة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. كما لو أنه يقول: «أنا أعرف بالضبط ما أفعله».

«لا يمكنك فعل ذلك» قلتها صارخًا داخل عقلى. لا يمكنك أن تفعل ذلك بى، لا يمكنك أن تأخذ بقلبى وبغضبى وبحياتى، ثم تضع كل ذلك أمامى، ثم بعدها تقول لى إنك تعلم ما تفعل! لا يمكنك الإفلات بهذه السهولة! أنت الذى خلقتنى هكذا!

بعدها اتضح لى: أننى كنت أشتكى إلى الله الذى لم أكن حتى أؤمن به.

افتح عينيك

عند النقطة التى أعقبت على الفور سؤال الملائكة والتى من الممكن أن تصبح الموضع الصحيح لصاحب النص؛ ليحاول إجراء التصحيح والعودة إلى الرواية التقليدية، عند هذه النقطة كان يمكن لصاحب النص أن يجعل إجابة الله: «نعم، فأنتم أيها الملائكة فى غاية الصواب تجاه طبيعة البشر، ولذلك فسوف أعاقبهم بأن ادع هذين الزوجين وجميع نسليهما يعانون على الأرض، بعدما يأتى هذان الزوجان بخطيئتهما التى لا يمكنهما تجنبها». لكن ذلك لا يزال غير كاف لإجابة سؤال الملائكة، حيث إنه لا يوفر تفسيرًا عن السبب الذى من أجله سوف يخلق الله هذا الكائن الفاسد من البداية، لكنه على الأقل سوف يرجع بالأمر إلى فكرة أن الحياة على الأرض هى عقوبة على اتسام البشر بالخطيئة، بدلاً من كونها فرصة لنا بأن نكون ممثلين لله.

وسرعان ما أصبح واضحًا بالنسبة لى أن للقرآن برنامجًا آخر، وأن له رؤية ورسالة مختلفتين غاية الاختلاف. بدلاً من الرجوع إلى الخطوط التقليدية، فإنه يبدأ بإجابة عن سؤال الملائكة سوف تركز على الذكاء الإنسانى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٤]. ثم على الاختيار الأخلاقى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٥، ٣٦]، ثم أخيرًا على الهدى الإلهى ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧، ٣٩].

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

تذكرت أن فى رواية الكتاب المقدس إطلاق آدم الأسماء على المخلوقات المحيطة به، لكن لم يبرز التوضيح على أنه تبرير خاص بخلق البشرية. مع ذلك، يبدأ القرآن إجابة على استفسار الملائكة بأن يلفت النظر إلى هذه النقطة. أصابنى الاندهاش بالأسلوب الذى حشد به النص المقدس العديد من المعانى داخل كلمات قليلة إلى هذا الحد. وإذا لاحظنا أن آدم لم يسم الأشياء التى حوله فحسب، لكن الله بدلاً من ذلك قد علمه، مما يؤكد ويشدد على قابليته للتعلم وعلى ذكائه.

نلاحظ أيضًا ما الذى تعلمه آدم. إنه يكتسب القدرة على إطلاق الأسماء على «كل الأشياء»، أى على تعيين رموز لفظية لكل شىء يصبح هو واعيًا به: على

جميع أفكاره، وخبراته، ومشاعره. إن نعمة اللغة - من بين كل النعم الفكرية - هى النعمة التى يؤكد عليها القرآن، ويتجلى السبب فى أنها هى الوسيلة والأداة عالية التطور التى تفصل البشر عن جميع الكائنات الأرضية الأخرى. إنه من خلال استخدام اللغة -أكثر من أية موهبة أخرى- نما البشر وتقدموا وتعلموا على المستوى الفردى والمستوى الجمعى، حيث إنها تمدنا بأدوات للتعلم من الآخرين، ولتعليمهم الآخرين الذين لا نملك اتصالاً شخصيًا بهم، بما فيهم الأشخاص الذين عاشوا ويعيشون خارج زماننا ومكاننا، إلى الحد الذى انفرد به مجمل التعلم البشرى ببروز صفة «الشخصية التراكمية»(١).

بعدها عرض الله على الملائكة الأشياء التى علم آدم أسماءها قائلاً لهم: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يوضح ذلك بكل جلاء أن الذكاء الإنسانى شكل بوضوح تام الرد على سؤال الملائكة. لقد سألت الملائكة: لماذا يخلق الله مثل هذا المخلوق العدوانى والخبيث، فى حين أنهم يفوقونه - من وجهة نظرهم - حيث إنهم يخضعون لإرادة الله بشكل مطلق ويسبحون بحمده ويقدسون له؟. يبدو أن القرآن يخبرنا فى هذه الآية وفى الآيات التى تليها مباشرة بأن هناك مواهب أخرى يقع الذكاء البشرى من بينها، مما يجعل من جنس البشر - على الأقل من جهة الإمكان - أعظم من الملائكة عند الله. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢].

اعترفت الملائكة بعدم قدرتها على مجابهة التحدى، حيث تنقصهم القابلية لخلق الرموز والمفاهيم لما يقابلهم من خبرات. وقد أرجعوا تفسير ذلك إلى أن هذا الفعل يقتضى الذكاء - العلم (المعرفة) والحكمة - وذلك بعيد عن متناولهم. واعترفوا أن

---

(١) مثلما أشار إلى ذلك «محمد أسد» فى تفسيره لسورة العلق فى «رسالة القرآن» الأندلس، جبل طارق، ١٩٨٠م، ص٩٩٣، هامش (٣). يؤكد القرآن مرارًا على هذه النقطة. تبرز مهارات القراءة والكتابة على وجه الخصوص بوصفها ضمن أعظم النعم الفكرية التى وهبها الله للبشر. انظر على سبيل المثال الآيات ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١، ٥].

هذا الأمر هو على الله هين؛ لأنه - سبحانه وتعالى - هو «العليم الحكيم»، لكنهم بوصفهم ملائكة لا يملكون هاتين الموهبتين.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

اجتاز آدم بنجاح ما فشل الملائكة فيه، وأبان عن ذكائه المتفوق. وعلى الرغم من عدم امتلاك آدم لعلم الله وحكمته، لكن نصيبه منهما فاق ما يملكه الملائكة فى هذا الصدد.

كنت قد بدأت فى الاعتقاد بأن صاحب النص لم يخطئ فى فهم رواية الكتاب المقدس، لكنه كان يعيد صبها فى قالب آخر؛ ليستخرج منها معنى أصليّا. كان يقول: إنه من الصحيح أن الله خلق القابلية والقدرة داخل الإنسان على فعل الخطأ، لكنه أعطاه أيضًا مواهب أخرى لم تقدر الملائكة على إدراكها أو تقبلها، ويصلح ذلك لحظة بعيدة المدى للغاية؛ لذلك صرح القرآن بأن الله قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؟. لذلك لم يتوقف هذا السؤال الموجه إلى الملائكة عند هذا الحد؛ لأنه تواصل: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

لقد تساءلت: ما الذى يكتمه الملائكة فى سؤالهم؟. كان الذى أبداه السؤال بديهيّا. لقد أظهر السؤال ميل الكائنات البشرية الفطرى للتدمير والشر، لكن ما الذى أخفاه؟

بعدها أتتنى الإجابة. لقد أكد اعتراض الملائكة فقط على جانب واحد من الشخصية الإنسانية: وهى قدرة الإنسان على اقتراف الخطأ والعنف البالغ، بذلك أصاب العمى الملائكة مثلما أصابنى عن رؤية الجانب الآخر من الطبيعة البشرية. فى مقدور بعض البشر بكل تأكيد فعل الفواحش، لكن هناك آخرون فى مقدورهم فعل الخير العميم. كان بعض الناس قادرين على التضحية بالذات، وعلى أنبل أفعال العدالة، وعلى أداء أكثر إسهامات الإحسان والرقة والدفء. بعض الناس قادرون على إظهار أعظم جوانب الرحمة والعطف لإخوانهم فى الإنسانية. لذلك كنت أنا - مثلى فى ذلك مثل الملائكة - لم أضع فى اعتبارى ذلك الجانب. ظللت لوقت

طويل لا أرى إلا الجانب المظلم من الكائنات البشرية. وفى حين أنه من الصواب أن البعض منا فى مقدورهم أن يكونوا مدمرين للحد الأقصى، فهناك آخرون فى مقدورهم أن يكونوا فى غاية النبل والخير، وكلنا نعرف أمثلة عظيمة فى كلا الاتجاهين. وغالبًا ما يظهرون على نفس منصة الدراما الإنسانية، حيث إن ظهور أحدهما يستثير ضرورة الآخر. يبدو أن الخير يستفز ظهور أسوأ ما فى داخل بعض الناس، فى حين يدفع الشر إلى ظهور أفضل ما فى آخرين. بذلك ففى الإمكان الحصول على من هم فى غاية الخير ومن هم فى غاية الإفساد خارجين من نفس البيئة المحيطة ونفس الظروف، ويتواجدان أحيانًا مع بعضهما البعض فى نفس الإقليم أو المدينة أو الجوار. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

لو تبقى لدى أى شك فى أن موقف القرآن عن تفوق الشخصية الإنسانية على الشخصية الملائكية، لأزالته هذه الآية. عندما نجح آدم فكريًا فيما رسبت فيه الملائكة، أخبرهم الله ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، وهنا سجد الملائكة معلنين عن اعترافهم بالتفوق الإنسانى. ويمثل السجود أيضًا علامة عن الخضوع والتبعية، وبذلك يبدو أن القرآن يشير إلى أن الملائكة سوف يخدمون الإنسان خلال تطوره على الأرض.

مع ذلك، رفض الشيطان - إبليس - السجود، وبرفضه قدم القرآن أصل الخطيئة. ووفقًا للقرآن فليست الأموال أو الطمع أو الشهوات هى منبت الخطيئة، لكنه الكبر الزائف والمؤدى لتدمير الذات. وبظهور الشيطان، أضاف النص المقدس - الآية - عنصرًا رئيسيًا آخر إلى الدراما وإلى إجابته على سؤال الملائكة الأصلى، لكن لماذا؟ لماذا الاحتياج إلى الشيطان؟ لماذا يخلق أحد جل غرضه الوحيد هو جعل الرجال والنساء يتنكبون عن فعل الخير؟

بدأ القرآن وصولاً إلى هذه النقطة وقد رتب ردًا ذكيًا على سؤال الملائكة، لكنه ظهر لى الآن وقد بدأ فى التلعثم والانحراف عائداً إلى رواية الكتاب المقدس، أغوى الشيطان آدم، وقع آدم فى الغواية، حكم على آدم وعلى كل سلالته بالعيش فى الأرض. وحتى الآن كنت قد عاهدت نفسى على أن أكون منفتح العقل ولا أفرض

تفسيراتى الذاتية التى لا ضرورة لها على النص المقدس. أنا على استعداد لإعطائه حق عدم الأخذ بالشبهات، بعدها سألت نفسى ماذا يمكن أن يكون الغرض من الشيطان؟ كل ثقافة لها معتقداتها المتميزة فيما يتعلق بالشيطان، لكن فى معظمها فهو يلعب دور القائم بالغواية، والذى يمر من اللاوعى نافثًا مقترحاته الشريرة داخل أفكارنا، مثلما تمثل الملائكة لنا مصدر الحض على الخيرات، يدفعنا الشيطان إلى فعل الشر. نحن نفكر فى الاثنين بوصفهما صوتين متعارضين داخل عقولنا عندما نتصارع مع مشكلة أخلاقية. هل الأمر كذلك؟ تساءلت. هل يقول القرآن بأنه إضافة إلى الإنعام علينا بالذكاء، فقد خلقنا الله كائنات أخلاقية، كائنات تفهم الخطأ والصواب؟

هل يقول بأن الله قد وهبنا أيضًا إلهامًا ملائكيًا إضافة إلى غواية شيطانية من أجل الارتفاع بدرجة وعينا الأخلاقى؟[1] هل يؤكد على حقيقة أننا مخلوقات فى مقدورها - وينبغى لها - عقد اختيارات أخلاقية؟. وعلى الرغم من عدم تمكنى حتى الآن من رؤية الهدف المنطقى الذى قد يؤديه (خلق الشيطان)، فلم أقدر أيضًا على رؤية كيف يتعارض ذلك بالضرورة مع ما قدمه القرآن حتى الآن.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

ظللت على فقدانى للثقة فى النص المقدس. وعلى الرغم من بداياته شديدة الامتياز، فقد بدت القصة الآن فى العودة بكل تأكيد إلى نسخة الكتاب المقدس: آدم وحواء أكلا من الشجرة وعوقبا بالعيش على الأرض، مع ذلك كان هناك شىء غير مألوف للغاية حول هذه الآية. ففى رواية الكتاب المقدس يظهر الله عصبيًا يشعر بالتهديد من احتمال أكل آدم من الشجرة؛ لأنها شجرة المعرفة والخلد، وإذا أكل منها بنو البشر، فسيصبحون هم أنفسهم آلهة ينافسون الله.

مع ذلك، ففى هذه الآية، يبدو الله هادئًا ومسيطرًا على الموقف تمامًا بما يثير العجب. لا وجود لأية افتراضات بأن ثمرة هذه الشجرة سيكون لها أدنى تأثير على

---

(١) ورد تأكيد ذلك فى عدد من الآيات، وعلى سبيل المثال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

آدم وحواء، ويبدو على الأغلب أن الشجرة قد اختيرت بشكل عشوائى. وسوف يشرح القرآن فيما بعد بأن إبليس أغوى الزوجين بأنهما إذا أكلا من الشجرة، فسوف يحصلان حينئذ على الخلد ﴿وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، لكن ذلك كله مجرد تزوير فاضح من جانبه، لا وجود لأى تلميح بأن الله قد انتابه القلق من أن الزوجين قد يعصيانه لقد أخبرهما فحسب بأنهما إذا عصياه، فسوف يكونان قد ارتكبا فعلاً خاطئًا.

على ضوء من الآيات السابقة ينبغى لنا التوصل إلى خلاصة تفيد بأن الزوجين سوف يقعان فى الخطأ فى آخر الأمر. إذن لماذا يخلق البشر كمخلوقات أخلاقية تتعرض للغواية؟ كل شىء قد أخبرته القصة لنا حتى الآن بدءًا من سؤال الملائكة ووصولاً إلى ظهور الشيطان، يفيد بأن الله على معرفة تامة بأن الزوجين سوف يخطئان فى نهاية الأمر، وأنه هو الذى قدر خلقهم على هذا النحو.

كما أننا أيضًا لا نعلم أن ذلك كان هو الوصية الأولى التى أوصى بها الله هذين الزوجين. لم يخبرنا القرآن. وقد يكون هناك وصايا قبل ذلك. كل ما نعرفه هو أن تلك هى الوصية الأولى التى لن يطيعاها. وقد تساءلت هل قد تكون تلك هى أهميتها (الوصية) الوحيدة؟ بمعنى أنها الاختيار المستقل الأول للزوجين، وهى المرة الأولى التى يختاران فيها فعل ما يخالف ما أخبرهم الله به.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وصولاً إلى هذه الآية، كنت مستعدًا لإغلاق القرآن وهجره إلى الأبد؛ لأننى أصبحت مقتنعًا وقتها بأنه قد ابتعد عن مساره الأول وقفل عائدًا إلى النغمة التقليدية القائلة بأن حياتنا الأرضية هى ببساطة عقوبة على خطيئة آدم وحواء. لكن ومرة أخرى فإن الصياغة الحاذقة للكلمات فى الآية سببت الحيرة لى، لماذا تشير إلى أعظم خطيئة فى تاريخ الجنس البشرى، الخطيئة الجوهرية (الخطيئة الأصلية) التى توجب نتيجة لها أن يعانى مجمل الجنس البشرى الألم، والشظف والموت على الأرض لمجرد زلة فحسب؟. تعنى كلمة (Slip) (أى زلة) فى اللغة الإنجليزية ما لا يزيد عن

مجرد فقدان التركيز اللحظى، أو فقدان مؤقت لموضع الخطو، أو الخطأ التافه. نحن نطلق كلمة (Slip) على الخطأ الذى لا تتبعه عواقب وخيمة. عندما يقول شخص ما Sorry, I slipped up ، أى «آسف لقد زللت»، فإن فهمنا لها هو أن الخطأ الذى ارتكب لا يعنى الشىء الكبير. وقد ظننت فى البداية أن الأمر ربما يكون مجرد خطأ فى الترجمة، لكن سرعان ما اكتشفت من خلال أصدقائى العرب أن الكلمة العربية (زلة) التى ترجمت إلى الإنجليزية (Slip) تحمل بالضبط نفس المعنى الذى تحمله (Slip) فى اللغة الإنجليزية. كيف للأمر أن يكون كذلك؟

سألت نفسى: هل لا يفهم صاحب النص حجم الخطيئة التى ارتكبها كلٌّ من آدم وحواء؟

عاودت ثانية قراءة هذه الآية والآية السابقة عليها عدة مرات، ثم انكشف الأمر أمامى: هل ارتكب الزوجان بالفعل جريمة شنعاء؟

ربما أنا الذى لا أستطيع الفكاك من التفسير التقليدى. ربما كنت أقاوم رسالة القرآن. على أية حال، فإنهما لم يرتكبا جريمة القتل أو الاغتصاب أو الزنا أو العدوان! لم يكن الأمر كله إلا شجرة فى نهاية الأمر.

وتوصلت إلى أن تسمية هذا الخطأ باسم «زلة» قد يكون صحيحًا إلى حد كبير، وقد يفسر ذلك أيضًا النغمة المحايدة لمجموعة الآيات هذه. فبدلاً من إخبار الزوجين بأنهما سوف يعانيان بشدة على الأرض. قيل لهما إن لهما فى الأرض ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. حيث لا يمثل ذلك بأدنى قدر كلمات تصدر عن إله غاضب معاتب. من الصحيح أن الله يخبرهما - ويمكن افتراض أن الخطأ موجه لمجمل البشرية - وربما أيضًا للشياطين وحتى للملائكة بالمثل - بالهبوط إلى الأرض وسيصبح البعض عدوًا للبعض، لكن سؤال الملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وكذلك الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] قد توقعا بالفعل أن الحال سوف يكون كذلك.

اكتشفت أيضًا أن التصريح بأن «زلتهما» التى قد أدت بهما إلى ترك الحالة التى كانا عليها مثير للاهتمام. من أية حال قد انتقلا؟ كل ما يكشف النص عنه أنهما لم يعودا فى حال من الانصياع الكامل لإرادة الله، وأنهما أصبحا الآن قادرين على الاختيار بين فعل الخطأ وكذلك الصواب. لكن كيف يمكن لذلك أن يكون شيئًا إيجابيًا؟ كيف يتسنى لذلك مساعدة الرجال والنساء على أن يتصرفوا بوصفهم خلفاء (ممثلين) لله على الأرض؟ كنت قادرًا على الإجابة على معظم هذه الأسئلة، لكننى لم أقدر على ربط الأجزاء مع بعضها البعض. كان هناك الكثير جدًا من الأسئلة التى تتوارد على خاطرى، والكثير جدًا من الأجزاء المتعلقة بتلك المعضلة.

استمرت الشكوك أيضًا على تسللها داخل أفكارى. ربما أصبحت متساهلاً للغاية مع القرآن، وبالغت فى منحه حق البراءة فى حالة الشك. ربما تصور هذه الآية الحياة على الأرض بوصفها عقوبة وقعت على البشر. ربما يروى القرآن روايتين متناقضتين فى الوقت نفسه. ربما لم يحزم صاحب النص أمره حول الرسالة التى يود توصيلها.

ظننت أن بعض الآيات التالية سوف تحل المسألة. إذا صورت هذه الآيات التالية الله فى صورة الغاضب والمنتقم والمعاقب، يكون القرآن وقتها قد انسحب من جداله الأصلى حول سؤال الملائكة. إذا لم يكن الأمر كذلك، فأنا عارف عندها بأن علىّ الكثير المتوجب من إعادة التفكير. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

تبعد نغمة الآية كل البعد عن الأسلوب الاتهامى بتشديدها على مغفرة الله ورحمته، كما سوف تبين الآية التالية أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه كانت كلمات تحمل الأمل والتعاطف.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

ترسم هاتان الآيتان صورة تعاطفية. لقد هبط الزوجان من الجنة ليفتتحا معسكرهما الأرضى. وينبغى علينا افتراض أن قلبيهما قد امتلآ بالندم العميق على

ما اقترفاه، وبالخوف على الحياة المقبلة فى بيئة غير معتادة. لقد التفت ربهما إليهما وغمرهما بمغفرته ورحمته، وطمأنهما بأنه سيداوم على إتيانهما بالهدى من عنده، وليس عليهما أن يخافا طالما اتبعا ذلك الهدى. ومثلما يتوجه أحد الوالدين بالعطف والرقة على ولده أو ابنته، يخبرهما الله «أنا أعلم بأنكما خائفان، وأن الأمر يبدو صعبًا عليكما، لكنكما ستكونان بخير حال. سأكون دائمًا معكما حيثما كنتما، وسآتيكما بالهدى على الدوام. ما عليكما إلا الحفاظ على أعينكما وآذانكما وقلوبكما مفتوحة على آياتى الكثيرة، وعندها فليس للخوف عليكما من سبيل».

بذلك نجد أن الله يغفر للزوجين ويمد يد العون لهما، لكن لماذا لم يرجعهما إلى الجنة؟ لنفترض - على سبيل المثال - أن ابنتى أخطأت وخصمت أنا بضعة دولارات من مصروفها كمظهر لعقاب، ثم إنها اعتذرت عقب ذلك وعفوت أنا عنها، لكننى أخبرتها بأننى سوف أبقى على هذا الخصم من مصروفها، من الطبيعى أن يكون رد فعلها كالتالى: «لكنك قد قلت إنك عفوت عنى ورغم ذلك أبقيت على عقوبتى! هل لك أن تحزم أمرك!» وإذا كان الله قد عفا عن الزوجين، فلماذا تركهما على الأرض؟

وأتتنى الإجابة سريعة سرعة نشوء السؤال؛ لأن الحياة على الأرض وفقًا للقرآن ليست بعقوبة. وطالما حافظت على ذلك قائمًا فى عقلى تظل الرواية فى غاية التماسك. لاحظ أيضًا تكرار القرآن لبيان أن: ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٨]، لكن ضعها هذه المرة بين خطوط تؤكد على عفو الله للزوجين وإحاطتهما بالطمأنينة والسكينة، كما لو كان النص يخبرنى بشكل حاسم: «لم يضعك الله فى الأرض من أجل أن يعاقبك». ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٩].

لماذا كان عليه قول ذلك؟ وداخلنى شعور غامر بالسخط والنقمة بمجرد ما بدأت أعجب بالمداخلة الفكرية للقرآن، رأيته يعود إلى تكتيكات الإخافة والترهيب. «يمثل ذلك ضربة تحت الحزام» قلتها مبديًا تبرمى. كنت سوف أستمر فى قراءتى على أية حال، حتى من قبيل حب الاطّلاع، بدون التهديدات، حيث تلقيت بالفعل ما يكفى من التهديد فى حياتى، ولم يسفر ذلك إلا عن تزايد المقاومة والامتعاض. قد

يكون القرآن قادرًا على إخافة الآخرين، لكننى لن أسمح للخوف أن ينتابنى. سوف أداوم على تحليل ذلك النص، سطرًا عقب سطر وآية بعد آية وصفحة وراء صفحة.

وقد تكون هذه الآية قد أصابتنى بالغيظ فى البداية، لكن تاريخى القصير للغاية مع هذا النص قد علمنى أنه عندما تتسبب آية فى إثارتى، فغالبًا ما تحتوى هذه الآية على دليل هام يدل على وجهة نظرها، ووجدت مرة أخرى حين أطلت النظر بعناية فى تلك الكلمات، أن الصياغة تثير الفضول والاهتمام. كان القرآن وصولاً إلى تلك النقطة مربوطًا إلى القصة الرمزية لآدم وحواء، وإلى بدايات الخبرة البشرية على الأرض. فى هذه الآية ومع التحول المفاجئ إلى صيغة الماضى، فقد ارتحلت بالقارئ بعيدًا داخل المستقبل وإلى خاتمة الدراما الإنسانية فى الآخرة، حيث تبين حالة هؤلاء الذين كفروا وكذبوا بآيات الله على الأرض. يمثل ذلك أداة فى غاية الذكاء، حيث يختم الله حديثه مع أول زوجين بآية تعبر عن العطف والتسرية، ثم يقدم فى الوقت نفسه تحذيرًا إلى القارئ فى الآية التالية بدون أن يقطع سريان الأفكار. لذلك يمكننا القول على سبيل الجدال، بأن الله موجود بالفعل.

فهل هناك أى شخص ينكر ويكذب بآيات الله مع معرفته بها، أم أن الأمر ببساطة هو أن الناس لا تهتدى لهذه الآيات بسبب إبهامها وعدم وضوحها؟ هل ينكر الناس بوعى ما يشعرون بأنه قد يكون حقيقيًا؟ هل يقوم الناس بتحريف ما يشعرون بأنه صحيح وصواب داخل عقولهم؟ هل يأخذ العناد بالناس إلى التضاد مع ضميرهم؟

بالطبع يفعل الناس ذلك - قلتها لنفسى - ولطالما فعلت أنا ذلك. لقد أنكرت فى العديد من المرات الحقيقة ولويتها وتلاعبت بها من أجل إشباع رذيلة أو نقيصة شخصية. لقد أضفيت المنطق فى كثير من الحالات على أفعال لا تؤدى إلا إلى الدمار وإلى التدمير الذاتى، رافضًا الاعتراف بأخطائى حتى إلى نفسى وعلى الرغم من أن إصرارى على ما شعرت بأنه قد لا يكون صوابًا قد تركنى فى حالة من الخواء والقلق وعدم الرضا، فقد تماديت فى السير فى الطريق ذاته بكل طيش. «إذا» كان الله موجودًا بالفعل، فأنا أظن أننى بكل تأكيد قد أنكرت آياته، لكنها مجرد «إذا» صارخة.

وقد أصابنى تعبير ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أيضًا بالصدمة، حيث إن الصاحب هو الشخص العزيز علينا، الذى نطّلع إلى صحبته ونرغب فى رفقته. هل يقول القرآن بأن بعض الناس يبحثون بشغف وتودد عن الهوان والبؤس الذى سوف يخوضونه فى الحياة الآخرة؟ وعندما يقول القرآن ﴿هم فيها خالدون﴾ فهل يومئ إلى أن الجحيم الذى سيصلونه فى الآخرة قد بدأ بمعنى ما خلال حياتهم على الأرض؟

وعلى الرغم من مئات الأسئلة التى أصبحت تدور فى رأسى فى هذا الوقت فلم يتسن لى بعد رؤية الصورة الكاملة، لكننى عرفت أننى على وشك دخول معركة. إذا كانت تلك الآيات العشر قد ألقت بى داخل هذا الكرب العظيم فالتحدى الماثل أمامى سيكون رهيبًا. ليس الأمر يتعلق بأننى آمنت بالله أو بأن صاحب النص لم يكن من جنس البشر، لكننى عرفت بأننى أواجه خصمًا مقتدرًا بلا نظير.

الحيرة الكبرى

لم يسبق لى على الإطلاق أن قرأت شيئًا يثير قدر هذه الحيرة مثل تلك الآيات العشر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠، ٣٩]. ظللت

أفكر فيها ليلاً ونهارًا - أثناء تناول طعامى، وفى ذهابى ومجيئى إلى العمل سيرًا على الأقدام، وعندما أجلس وحيدًا، وأثناء مشاهدة التليفزيون، وعندما أضع جنبى على السرير. داومت على مراجعتى لها داخل عقلى، محاولاً إعادة تركيبها مع بعضها البعض مثل أجزاء اللغز أو الأحجية، وأصبحت هذه الآيات تمثل لى معيار الاختبار خلال قراءتى لبقية القرآن، وفى كل مناسبة ألتقى فيها بآية يبدو لها أثر على سؤالى المتعلق بالهدف من الحياة، أشرع فى مقارنتها بالأفكار المتضمنة فى هذه الرواية الرمزية.

وبدأت أشعر بالتدريج بأننى بصدد حل بعض خيوط الأسئلة المتشابكة التى ألقتها هذه الرواية فى طريقى، لكننى لم أقدر على الوصول بمجمل هذه الحلول إلى تفسير مفهوم عن الوجود البشرى على سطح الأرض.

تطلعت بشدة إلى مواصلة بحثى، لكن الصبر كان مطلوبًا. لم يناقش القرآن الهدف من الحياة فقط على الرغم من أن كل شىء ناقشه القرآن ينتمى إلى ذلك الهدف بطريقة ما. يشتمل القرآن على القصص، والروايات الرمزية، والإنذارات، والبشارات، كما يتضمن وصفًا دراميًا للجنات وللجحيم ويوم الحساب، ومظاهر الطبيعة. إنه يمدنا بالوصايا، وبالجدل ضد خصومه، وبالبراهين على مصدره المقدس. يحتوى القرآن على دعاوى منطقية وعاطفية وروحانية، كما يناقش استخدامه للرمزية، وأهمية العقل البشرى، وفى نفس الوقت كذلك محدوديته وقيوده. يتكلم القرآن أيضًا عن الحقائق الغيبية التى تتجاوز الإدراك البشرى، ويتكلم عن نعم الله ومواهبه وعلاقتنا به، سبحانه. يقدم القرآن نسيجًا محكمًا من كل ذلك خلال النص الخاص به دونما أن يطيل التركيز على أى موضوع لمدى طويل، لكنه يرسل بدلاً من ذلك بومضات من الصور والرسائل القوية والفريدة ويضعها أمام أنظارنا، محولاً تركيزنا من مظهر من مظاهر الحقيقة إلى مظهر آخر لها.

وقبل أن أقفل عائدًا إلى بحثى عن إجابة لسؤال الملائكة، فقد ظننت أنه من المناسب هنا أن أسوق بعض الأسئلة التى وصلت إلى تسألنى عن مواجهتى الأولى مع القرآن.